

الفصل الأول

ساحة المعركة

تجري وقائع هذه القصة في العام الثالث من الحرب الأخيرة بين فرنسا وإنجلترا. كانت الدولتان تتنازعان على الأرض التي ستصبح فيما بعد كندا والولايات المتحدة. شُيِّدت الحصون ودارت المعارك للاستحواذ عليها بعد أن فر الفلاحون من ساحات القتال. كانت حرباً ضارية، لا سيما إبان شهور الشتاء الباردة، وكانت الفرحة تغمر الجنود عندما يهل الصيف.

أيقظ صوت قرع طبول الحرب في منتصف الليل الجنود الإنجليز المتعبين والمنهكين بحصن فورت إدوارد. وعلموا على الفور أن القائد الفرنسي، مونتكالم، قادم من أعلى النهر ومعه جيش كبير. أمر القائد الإنجليزي، الجنرال ويب، جنوده الألف والخمس مئة بالتحرك على امتداد النهر عند الفجر لمواجهة الجيش الفرنسي عند حصن فورت ويليام هنري.

مع بزوغ الضوء الأول من الفجر امتطى الجنود خيولهم القوية ومضوا في طريقهم. وسارت من خلفهم عربات كبيرة تحمل الإمدادات، وتستثير الثرى أثناء مرورها. وبداخل منزل الجنرال ويب، كانت كورا وأليس مونرو — ابنتا الجنرال مونرو الذي كان مسئولاً عن حصن فورت ويليام هنري — تستعدان لرحلتهما إلى حصن فورت ويليام هنري. ووقف بالخارج الرائد دانكن هيوارد يطمئن أن كل شيء جاهز للرحلة، ووقف إلى جواره مرشد من الهنود الحمر يدعى ماجوا.

كان من المحتمل أن تكون الرحلة إلى حصن فورت ويليام محفوفة بالمخاطر، لا سيما مع قدوم مونتكالم للانقضاض على الإنجليز. لذا كانت مهمة دانكن وماجوا إيصال الفتاتين كورا وأليس إلى حصن فورت ويليام هنري بسلام.

آخر رجال الموهيكان

وقف دانكن يحكم ربط سروج الخيول، وكان أكثر ما يشغل باله هو سلامة أليس، فقد كان يُكِنُّ لابنة الجنرال مونرو الجميلة مشاعر حب قوية، ولا يتمنى أن يراها تتعرض للأذى بأي شكل من الأشكال.

وأثناء تجهيز دانكن وماجوا للخيول اقترب رجل طويل ونحيف منهما. كان يرتدي قبعة كبيرة ويحمل صافرة صغيرة.

قال الرجل لدانكن: «يا له من حصان جميل، رأيت الكثير من هذا النوع في نيو هافن. إنه رائع المنظر، أليس كذلك؟»

رمقه دانكن بنظرة غريبة واستأنف استعداداته. وقف الرجل الغريب برهة في انتظار إجابة، لكن عندما لم يجدها مضى في طريقه.

بعد مرور بضع دقائق انفتح باب الكابينة وخرجت الشقيقتان. كانت أليس الصغرى جذابة للغاية. كانت شقراء وعيناها زرقاوين، وغاية في الجمال. ساعدها دانكن وهي تمتطي حصانها. ابتسم لها ابتسامة رقيقة، ثم احمرت وجنتاه قليلاً عندما شكرته على مساعدته لها.

ثم استدار إلى كورا وساعدها على امتطاء حصانها. خرج الجنرال ويب لوداعهم، فأوماً الثلاثة براءوسهم مودعين، ثم مضوا في طريقهم.

وما إن خرج دانكن والفتاتان من المعسكر حتى تجاوزهم ماجوا ممتطياً حصانه بسرعة. فزعت أليس من سرعته وصاحت: «يا إلهي!».

حدقت كورا بعينيها المتقدتين أمامها مباشرة دون أن تشعر بالذعر؛ بل جذبت في هدوء وشاحها للأسفل ليغطي شعرها البني الداكن وعينيها البنيتين الداكنتين أيضاً.